

من ذكريات أوروبا

باريس الصغيرة

للأستاذ أحمد فتحي مرسى

لم يكن من بد أن نكتب عن باريس الصغيرة بعد أن لحق بشقيقتها الكبرى ما لحق من نكد الحياة ، وعت الزمان ، ما جعلها تشيع زمان الله والنفلة ، وتستقبل زمان الجد والحذر والحرص ، وبعد أن تالها هي الأخرى أو كاد أن يتألفها ما تال أخيراً لها من قبل فتكافئت عليها أزمات السياسة ، وضائقات الحرب ، ونكبات الطبيعة ؛ وأن لهذه الوجوه التي لم تتقبض أسرتها إلا من الضحك أن تتقبض يوماً من الجد والحزن والتفكير ... وإذا كانت باريس قد لقيت من أقلام المهين والمجيب والمحتملين بها الكثير من كلمات الرأاء والجزاء والذكر ، فلا أقل من أن نشيح الشقيقة للسفري بكلمة أو كلمتين

وباريس الصغيرة ، أو باريس شرق أوروبا كما اصطاح على تسميتها عارفو الباريسيين هي مدينة بوخارست حاضرة رومانيا ، وليس في هذا الاسم إغراق أو مغالاة ، فبين المدينتين تشابه كثير ، فأحياء بوخارست الجديدة تشبه أحياء باريس ، وحياة

على أن الإنتاج العلمي الجامعي كما هو وليد القدرة على الإنتاج وكثرة الاطلاع وهضم المقروء وليد الزمن أيضاً . وبذا يفترق عن الإنتاج للصحفي أو الإنتاج للمدرسي . ونحن نطمئنك أيها الصديق برغم عدم هذه التهيئة الكافية في بيئة الأزهر العلمية لقبول الأبحاث الجامعية ، وبرغم هذه الصعاب التي نلقاها في التوجيه ، على أن « بيئة العملية » في نحو ، وعلى أن لنا في جمهرة الطلاب وفي كثير من الشبان المدرسين أهواناً غلصين ، وعلى « أن لنا أسلوباً خاصاً ونقصد في دراستنا وفي إنتاجنا وفي توجيهنا التعليمي مقصداً خاصاً يقوم على حرية البحث ، وقراءة الفكر ، والشجاعة في مواجهة ما نلقى من عنت ... ونطمئنك أكثر من هذا على أننا قطعنا في إنتاجنا الجامعي خطوات عديدة . وكل ما نرجوه ، حتى يعزز هذا الإنتاج إلى الوجود ، هو توفيق الله .

محمد البرهي

مدرس علم النفس والفلسفة

بكلية أصول الدين

اللهو والمجون في بوخارست تمدل حياة اللهو والمجون في باريس أو هي تزيد عليه ، ونساء بوخارست متحجرات عابثات كنساء باريس مولعات بتقليد الباريسيات في اللثاق والتجمل إلى حد بعيد ، وإن كن أجمل منهن وأنف . وكما أن باريس هي مدينة المرح والحياة ومحط آمال الشباب في غرب أوروبا ، فبوخارست هي مدينة المرح والحياة ومحط آمال الشباب في شرقها . وإذا كان شباب أوروبا يستقبل الموت لليوم في محور « روما برلين » فقد استقبل الحياة من قبل في محور باريس بوخارست ... حتى نهاية المدينتين - يشاء القدر أن تكون متشابهة - فكما نمزج المرأة الجميلة بشبابها وجمالها وتحرص على صيانتها ، وتحذر أن يمس سوء ، كان ما فعلت الباريسيان ، فسلطنا طامعين غتارتين حذر أن يمس جمالها من الحرب سوء ، أو يناله في الدفاع أذى .

هبطت مدينة بوخارست من عام وبهض عام ، وكنت قبل سفري تننثر حولي عن عشبها ومجونها أقوال أصدقاء لي زاروها من قبل ، فلم أكن ألقى إليهم أذنًا صاغية ، وأحسب أن بكلامهم الكثير من مبالغات الشباب وخياله . ثم حدثني عنها أديبة بولندية قائلتها في أثنائها ، فكنت أيضاً كثير للشك في كلامها ، وكان يبرز هذا الشك في رأسي أن بوخارست - وإن كانت مدينة أوربية - إلا أنها أقرب إلى الشرق منها إلى الغرب ، فليس ثمة ما يجعلها تختلف عن نظيراتها من مدن شرق أوروبا كاستنبول وأثينا وصوفيا . فلما ركبت القطار من ميناء كونستنتزا - وهي مرفأ روماني - في طريقني إلى بوخارست ، حدث ما جعلني أصدق ثم أصدق ما قيل ، بل حدث ما جعلني أرى أن فيما سمعته عن هذه البلاد الكثير من القصد والإيجاز ، لا البائلة والإغراق

كان القطار مزدهجاً فوقفت في المشي أتلقى بالنظر من النافذة ، ثم أخذت أذني في أقصى المشي ضجة ، فثلثت فإذا شاب بدالي من وجهه أنه تركي - مقبل عليّ وقد تحلقت به خمس فتيات - أستغفر الله - بل خمس فائنات ، إي والله خمس - وهو يسير بينهن في هيئة العروس أحاطت بها وصيقات الشرف ، يجنب هذه ، ويقبل تلك ، ويماني الثالثة ، ومن يشا حكن من حوله ، ويتجاذبنه من سترته ! فلما بلغت هذا

الموكب الروح ، حيثاني اشباب ضاحكا ، وجمعت الفتيات يحدقن في وجهي طويلا ثم قالت لاحداهن :

— هذا تركي آخر

فقالت أخرى :

— بل هو مصري

وقالت ثالثة ضاحكة :

— أما تجيب أيها النشال ؟

ثم تضاحكن وانصرفن عني ضاحكات

يمثل هذا البث والمرح تقابلك الفتاة الرومانية ، فهي دائما باسمة مرحة ، تنازلك إذا لم تنازلها ، وترميك بالجهد إذا لم تسارها في مرحها . وحسبك أن تعلم أن أول ما يتعلمه الأجنبي في بوخارست من اللغة الرومانية — وهي لغة تشبه الإيطالية إلى حد — هي كلمات : « جميلة . إلى أين يا فتاة . ما هذا الجلال للنادر » وما شا كل ذلك من كلمات المباشرة والمنازلة . وكثيرا ما كنت أخطئ في نطق هذه الكلمات فكانت تصحح لي النطق بها من أعابها من الفتيات فتقول لي مثلاً : « فورموسا (أي جميلة) وليس فورموزا . انطقها هكذا فورموسا بحرف « S » إنك لا تحسن النطق . اصحبنى لأعلمك »

فإذا بدالك أن تكون رجل جده واثرا ، أخذن يثرنك ويشازلنك ، ويتشبثن بأذيالك أينما رحلت ، بل يحسرن بك في الطريق ، فإذا ألقت بإحداهن ودعوتهن إلى زهرة أو طعام لبثك طائفة دون روية أو ترث أو تفكير ، وسابرتك في كل ما ترغب ، فهي سهلة القياد لا تعرف المارضة !

وفتاة بوخارست اجتماعية بكل ما تحتمل الكلمة من معنى . ذلما تراها تسير وحيدة ، فإذا لم تجد من تراهل زاملت من تصادفه في الطريق . وهي في ذلك تتخير أتعفه الأسباب للتعرف ، ثم تضع يدها في يدك ، وتطرح التكلف والملاينة جانباً ، وكأنها تعرفك من سنين . . . حدث مرة أن كنت جالسا في مقهى في شارع الليزييتا ، فدنست من فتاة جميلة ، ثم سألتني إن كنت مصريا ، فلما أجبتها بالإيجاب أخرجت ورقة وقلما وسألتني أن أكتب لها اسمها باللغة الميرغليانية . فقلت لها : « إنها لغة قدماء المصريين وقد اندثرت ، ولغتنا الآن هي العربية » فقالت :

« إذن فلتكتب اسمي بالعربية » فكتبتة لها ، ولكنها بدل أن تنصرف جعلت تتعجب من الخط ، فلم أجد بدا من دعوتها للجلوس فأسرعت بالقبول ولم تقم حتى دعوتها للمشاء في اليوم التالي . . . ومثل ذلك يحدث للمرء مراراً عدة في بوخارست

ومن الفتيات من لا تنحري هذه القدمات ، قراها تقابلك وتبدؤك بالسلام ، والسؤال عنك وأين أنت يا أخي ، أو هي تجذبك بيدها ، أو تحطف قبمتك ، أو تقبلك ، أو تمنطقك . كل ذلك دون أن يكون لك بها سابق عهد ! والمعجب في هذا أنها تفعل كل ذلك في بساطة ودون استحياء . وأعجب منه أن هذا العمل لا يلفت أنظار المارة ، على الرغم مما لاحظته من فضول الرومانيين المعجب . . . فقلنا نخرج من جيبك صورة أو خطاباً في الطريق دون أن يشاركك في النظر إليها أو قراءته كل من حولك ، ومن ليموا حولك . بل أكثر من ذلك فإنهم يبدوون لك ملاحظاتهم ، فيقول أحدهم مثلاً : « لو وسدت رأسك كفك في الصورة لكان أفضل » أو : « لو كانت الصورة على مسافة أبعد لكانت أوضح من ذلك » أو : « هذا الخطاب مكتوب بخط عجيب » . . . إلى غير ذلك من الملاحظات التي لا تنتهي إلا بإخفاء ما في يدك عن نواظرم .

وعلى الرغم من هذا الفضول العجيب قلنا يلتفت إليك ماراً وأنت تمانق فتاة أو تمارها ولو كفت في جمع حافل من الناس لكثرة ما أخذت هيونهم مثل هذا النظر . وقد حدث لي في أول ليالي ببوخارست أن كنت أتناول المشاء في مطعم مع صديق مصري وصديقة رومانية ، وكانت معي بمض صور لأهرام الجيزة فرغبت الفتاة في واحدة منها ، فقال صديقي مسابكاً : « وكم تدفين ثمنك لهذه الصورة ؟ » فقالت : « ما يطلب » فقال ضاحكاً : « إنه يقع بقبلة أو قبليتين ، وإن كانت الصورة ثمينة جداً » فقالت : « إذن فليقبل » فقال : « ليس أمام كل هؤلاء الناس » فقالت : « وما شأنهم في ذلك ؟ » . ثم قامت قبليته وقبليتي ، فأخذني الحجل ، وجعلت لا ألتفت حولي خشية أن تأخذني الأنظار من كل جانب فزريد في خجلي ، ولكن لشد ما كانت دهشتي حين تلتفت فلم أجد أحداً أثار ما حدث أي اهتمام ، بل وجدت كل من حولي يفعل ما نفعل !

في هيئة ورفق على أنغام الموسيقى ... منظر جل يجذبني إلى هذا المكان كل مساء

وفي حديقة كارول الأول بحيرة طبيعية ، يقع على شاطئها مسجد شرق آية في الجمال والقرن ؛ فإذا أقبل المساء انسابت الزوارق إلى عرض البحيرة ، وعلى كل زورق عاشقان ، جمعهما الهوى ، وأظلهما للظلام ، وأغرستهما هدأة الليل الجليل ، فذهبا يتناقلان الحديث ، ويتشاكيان الهوى ، ويتبادلان السناق ؛ فانت لا تسمع أيما أدت أذنك إلا همسات للزول ، وأصوات للقبل ، وخفقات المجاديف قد اختلطت بضحكات النساء

وعلى مقربة من المدينة تقع غابة «بانيسا» Băneasa ، وهي غابة صغيرة جميلة كانت لنا فيها جولات نذكرها بالخير ، وعلى أميال منها بحيرة سناجوف Snagov في موقعها الطبيعي الساحر ، وهي أروع ما وقع عليه نظري في هذه البلاد

ولا أود أن أختم للقول قبل أن أشير إلى رخص تكاليف المشية في بوخارست إلى حد لا يتصوره العقل ، ولا يصدقه إلا من زارها ، ويرجع ذلك إلى فقر البلاد ، وانخفاض سعر «اللي» Lei — وحدة العملة الرومانية — انخفاضاً كبيراً. وحسبك أن تعلم أن ما يتفقه الإنسان في القاهرة في يوم ، يكفيه في بوخارست ثلاثة أو أربعة أيام على الرغم من كونها بلاداً أجنبية غريبة عليه. وأرخص ما في المدينة الطعام ولا سيما اللحم — فالبلاد بلاد سهول ومراعى — وهم في طعامهم أقرب إلى الشرقيين منهم إلى الغربيين. ولعل ذلك يرجع إلى عهد الاستعمار التركي . وأظهر مشروبهم البيرة والنبيذ والسيكا — وهو للشراب الوطني للبلاد — وقلمنا نخلو مائدة من إحداها

هذه هي بوخارست أو باريس الصغيرة كما يسمونها ، مدينة الروح والحياة والجمال . وهذا بعض حقها على ، وإنه ليمز على وعلى طريفها ما نالنا من محنة ، ولنا فيها ذكريات وأصدقاء وأحباب ، خفف الله عنها وعنهم ، وأجل لهم العزاء

« تم »

(القاهرة)

ومثل هذه الحال من المجون والاستهتار كان لها أثر بالغ في حياة أطفالهم ، وسفار الفتيات ، فكثيراً ما كن يترايمن علينا في أوقات متأخرة من الليل

والظاهر أن هذا الانحلال الأخلاقي في رومانيا ، مرجعه الحروب المتلاحقة التي تقلبت عليها فأفنت رجالها ، ثم خلقتها وعدد نساها أكبر من عدد الرجال ، وهؤلاء الرجال — على قلتهم — منصرفون عن النساء لكثرة عدهن ، وسهولة منالهن ، لذلك نرى رجال رومانيا وشباباً مدللين متراخين قليلي الخبرة على جانب غير قليل من الطراوة والضعف والتهاون مع نسايم : فالفتاة في بوخارست . قد تسهر معك إلى الثانية عشرة ، أو الواحدة صباحاً ، ويستأذن أخوها أو قريبها لينصرف ، وهو يقول لكما مبتسما : أرجو لكما وقتاً طيباً ، أو سهرة موفقة ، أو شيئاً من ذلك . ثم ينصرف لشأنه

وفتاة بوخارست فوق ذلك من أجل نساء العالم وجهاً وجهاً ومن أكثرهن تحرراً ، فهي تسير نزواتها وأهوائها إلى أبعد الحدود ، لا تخشى في ذلك لومة لائم ، أو كلمة رجل ؛ ثم هي ساذجة مطواع طيبة القلب ، تصارحك بكل شئونها ولوم تقابلها إلا مرة واحدة ، وهي بعد ذلك وفية كل الوفاء

والحدائق في بوخارست ، هي مسترد للشباب ، وميدان للنزل ، وملاذ الهوى ، يقصدها القوم جميعاً قبيل الغروب . والمدينة غنية بمحادثاتها وقد وهبها الله موقعاً طبيعياً غنياً بالبحيرات الطبيعية ، فأنشأوا حولها الحدائق ، ونمو الخنازل والأشجار والخضرة ؛ ففي وسط المدينة تقع حديقة (تشيشميجو Cismigiu) وبأطرافها تقع حدائق كارول الثاني على شواطئ بحيرة هيراستراو Herăstrau ، وحديقة تي Tei على شواطئ بحيرة Tei ، وحديقة البوتانيك Gradina Botanic ، وحديقة كارول الأول وتوسطها بحيرة طبيعية جميلة ... وغيرها ...

وكل هذه الحدائق آية في الجمال والتنسيق والوقع . ولن أنسى أسمى قضيتها في مطعم أنيق في حديقة كارول الثاني يطل على البحيرة ، وقد انمكست أضواؤه على صفحتها المأدبة ، وانتشرت بها الزوارق البخارية ذات الأضواء الملونة ، وهي تتخطر